أديب نحوي
في مرآة النقد

د. نضال الصالح

© حقوق النشر الإلكتروني محفوظة ل

www.nashiri.net

© حقوق الملكية الفكرية محفوظة للكاتب

نشر إلكترونيا في أغسطس 2003

لم تنل تجربة أحدٍ من كتّاب القصّة والرواية في سورية من تجاوز الخطاب النقدي لها كما لقيت تجربة القاصّ والروائي أديب نحوي، وإذا كان هذا التجاوز واحداً من الأمثلة الجهيرة والكاشفة عن جزء من مثالب هذا الخطاب، الذي يرتهن، في أغلبه الأعمّ، إلى ما هو انطباعي وتأثّري خاصّ، وإلى الأحكام السابقة على المنقود، أو على منتجه على نحوٍ أدقّ، فإنّه، في الوقت نفسه، واحدٌ من الأمثلة الجهيرة والدالّة أيضاً على غلبة الذاتي على الموضوعي في معظم الممارسات التي ادّعت، أو تدّعي، انتماءها إلى النقد.

لقد قدّم نحويّ، عبر مسيرته الإبداعية التي استمرّت لنصف قرن تقريباً، وعلى نحوٍ يكاد يكون متواتراً، أربعة عشر مؤلّفاً إبداعياً، ثماني مجموعات قصصية وست روايات، اتّسمت جميعاً باندغامها بقضايا الوطن والأمة وبصدورها عن رؤية واقعية لصيقةٍ بآلام الجماعة وآمالها، ووفق حوامل جمالية تكاد تكون خاصّة بكاتبها ومميّزةً له من مجمل الأصوات التي صاغت حراكَ الجنسين القصصي والروائي في سورية منذ منتصف أربعينيات القرن الفائت إلى منتصف التسعينيات. بمعنى أنّ نحويّ لم يكن "نكرة" في المشهد الثقافي السوري، كما لم يكن إبداعه أقلّ قيمة، على المستويين المضموني والجمالي، من نتاج أولئك الذين توقف هذا الخطاب عندهم قليلاً أو كثيراً.

وإذا كان ثمّة ما يسوّغ لبعض إنجازات المشتغلين بنقد القصة في سورية ذلك التجاوز، كما في الإنجاز الرائد لشاكر مصطفى: "محاضرات عن القصة في سورية حتى الحرب العالمية الثانية"(1957)، أي توقف مصطفى عند النتاج القصصي الصادر حتى عام 1944، إذ لم تكن مجموعة نحوي الأولى "كأس ومصباح" قد صدرت بعد، فإنّ المتّتبع للحركة النقدية السورية المعنية بالنتاج القصصي السوري لا يجد مسوّغاً لعدنان بن ذريل تجاوزه لهذه التجربة في كتابه: "أدب القصة في سورية"(1966)، الذي وثّق فيه للنتاج السردي السوري، قصّةً وروايةً، الصادر حتى النصف الأول من الستينيات، والذي يتقدّم نتاج نحوي، على المستويين المشار إليهما آنفاً، على عددٍ غير قليل من التجارب التي تناولها فيه. كما لا يجد مسوّغاً لسامي الكيالي في كتابه: "الأدب المعاصر في

سورية"(1968)، ثمّ لبو علي ياسين ونبيل سليمان في كتابهما المشترك: "الأدب والأيديولوجيا في سورية"(1974) الذي درسا فيه نحو عشرين قاصاً وروائياً سورياً، والذي لم تكن فيه ثمّة إشارة واحدة إلى تجربة نحويّ.

ولئن كان كتاب عادل أبو شنب: "صفحات مجهولة في تاريخ القصة السورية"(1974)، يعني، كما يشير إلى ذلك عنوانه، إزاحة غبار النسيان عن التجارب التي لم يلتفت إليها سابقوه ممّن أرّخوا للحركة القصصية السورية، فإنّ هذه الإزاحة لم تطل تجربة نحوي كذلك، والسمة نفسها تتجلّى في صنيع محمّد كامل الخطيب في كتابه: "السهم والدائرة، مقدّمة في القصة السورية القصيرة خلال عقدي الخمسينات والستينات"(1979)، وكذلك في صنيع عبد الله أبو هيف الذي درس في كتابه النقدي الأول: "فكرة القصة، نقد القصة القصيرة في سورية"(1981) نتاج نحو ستة وعشرين قاصاً وقاصة، لم يكن نحوي واحداً منهم. وعلى الرغم من أنّ د. حسام الخطيب كان خصّ فصلاً من كتابه: "القصة القصيرة في سورية، تضاريس وانعطافات"(1982) للحديث عن "نهوض القصة القصيرة في الخمسينات"، وفصلاً آخر للحديث عن "تبعات المعالجة القومية في القصة القصيرة"، وهما فصلان يفترضان التوقف عند تجربة نحوي خاصّة، بسبب صلتها المباشرة بهذين الموضوعين، فإنّ الخطيب لم يلق بالاً للتجربة، كما فعل سواه من الذين تقدّموه، وكما سيفعل محمود الأطرش في كتابه: "اتجاهات القصّة في سورية"(1982)، ونعيم اليافي في: "التطوّر الفنّي لشكل القصة القصيرة في الأدب الشامي الحديث"(1982)، وسيف الدين القنطار في:"الأدب العربي السوري بعد الاستقلال"(1997).

والممارسة النقدية الوحيدة التي أفلتت من إسار ذلك التجاوز والإهمال، وعلى مستوى اشتغالات الخطاب النقدي السوري الخالص للقصة السورية، هي ما قدّمه رياض عصمت في كتابه النقدي الأول: "الصوت والصدى، دراسة في القصة السورية الحديثة"(1979)، الذي تناول فيه رواية نحوي: "عرس فلسطيني"، ليس بوصفها نصاً

روائياً، بل بوصفها قصة طويلة، معللاً ذلك بأنها "تعتمد على لقطة صغيرة تنفلش إلى أبعاد ورؤى"[1]، وبأنّ "تحليل الأحداث يعوزها، وكذلك تحليل الشخصيات نفسياً"[2]. ولعلّ من أهمّ ما انتهى إليه حولها هو أنّ "لغة أديب نحوي لغة نثرية حديثة وممتلئة من دون ترهل أو إفاضة"[3]، وأنه يشارك يوسف إدريس وزكريا تامر وحيدر حيدر ووليد إخلاصي "في محاولة لتجديد المعالجة اللغوية للأدب عن طريق التكثيف والشاعرية"[4]، وأخذ عليه، في هذه الرواية، مبالغته "في تصوير البطولة وتقديسها إلى الحدّ الذي تمتصّ معه القدرة على التصديق والاقتناع، وتقضي.. على واقعية الشخصيات، إن لم نقل الحدث"[5].

ولم يكن هذا التجاوز والإهمال وقفاً على الخطاب النقدي السوري المعني بالقصة السورية، بل امتدّ ليشمل مثيله المعني بالرواية السورية التي يُعدّ نتاج نحوي واحداً من أبرز العلامات في مسار خطّها البياني، وواحداً مما يكمن عدّه جذراً في الاشتغال النقدي لهذا الخطاب، ولا سيّما فيما يتصل بمفهوم "الواقعية" في الأدب والإبداع عامّة. ويمكن تجلية هذه السمة في نتاج كل من: بن ذريل، في كتابه المشار إليه آنفاً، وفي مجمل نتاج حسام الخطيب، وفي معظم ما كتب سمر روحي الفيصل، باستثناء إشارته الخجولة إلى روايتي: "تاج اللؤلؤ"، و"سلام على الغائبين"، في كتابه: "بناء الرواية العربية السورية 1980-1990"(1995)، ثمّ في كتاب نبيل سليمان: "الرواية السورية"(1982)، وفي كتابي فيصل سمّاق: "الواقعية في الرواية السورية"(1979)، و"الرواية السورية، نشأتها وتطورها ومذاهبها"(1984)، وفيما قدّمه علي نجيب إبراهيم في كتابه: "جماليات الرواية، دراسة في الرواية الواقعية السورية المعاصرة"(1994)، وفيما قدّمته فادية المليح الحلواني في: "الرواية والأيديولوجيا في سورية 1958-1990"(1998).

والاستثناءان الوحيدان اللذان لم يذعنا لهذه السمة المميّزة للخطاب النقدي السوري المعني بالرواية السورية فحسب، هما ما قدّمه عدنان بن ذريل في كتابه:"الرواية العربية

السورية، دراسة نفسية في الشخصية وتجربة الواقع"(1973)، الذي تناول فيه روايتي نحوي: "متى يعود المطر"، و"جومبي"، والذي، كدأبه فيما صدر له، لا يتضمّن أيّة أطروحة أو نتيجة نقدية تسعف القارئ في التعرّف إلى سمات أيّ من التجارب الروائية التي تناولها الدارس. ثمّ ما قدّمه عمر الدقاق في كتابه: "فنون الأدب المعاصر في سورية"(1971)، الذي ترجم فيه لنحوي، كما تناول فيه روايته: "متى يعود المطر"، التي رأى فيها رصداً دقيقاً "للمواقف الشعبية الأصيلة النابعة من صميم البيئة المحلّية وواقع حياة الناس البسطاء في لقطات حيّة ومعالجة هادفة، قد تفتقر، أحياناً، إلى الحرارة والعمق، ولكنّها تتسم، دائماً، بالأصالة والصدق"[6]. ولعلّ من أهمّ ما أخذه الدقاق على نحوي في هذه الرواية، وعلى مجمل ما سبقها من نتاجه القصصي والروائي، هو أنّ ثمّة في هذا النتاج "نزعة خطابية تتسم بالصيغ المباشرة والعبارات التقريرية التي كثيراً ما تنأى عن التصوير وتبتعد عن التحليل نتيجة علوّ النبرة الشعارية"[7].

وباستثناء أيضاً ما قدّمه عبد الله أبو هيف في: "الأدب والتغيّر الاجتماعي في سورية"(1995)، أي دراسته لقصتين لنحوي، هما: "مقصد العاصي"، و"سلاح الأعزل"، فإنّ أذى التجاهل سيمتدّ إلى ما أنجزه النقّاد السوريون حول السرد العربي عامة، أي إلى نتاجهم النقدي غير الخالص للقصة والرواية السوريتين، ومن أمثلة ذلك ما تواتر في نتاج محيي الدين صبحي، وجورج طرابيشي، ونبيل سليمان، ومحمد كامل الخطيب، وخلدون الشمعة، ونعيم اليافي، ومحمّد عزّام، وجورج سالم، وصلاح صالح، وعبد الرزاق عيد، وسواهم، على الرغم من أنّ بعض أعمال نحوي الروائية يبدو جذراً أيضاً في الموضوعات التي اشتغل عليها هؤلاء النقّاد.

ومن أبرز ما انتهى أبو هيف إليه في دراسته تلك إشارته إلى "البساطة الماهرة والخيال الواقعي الخصيب" اللذين اتسم بها أدب نحوي عامة، ثمّ إلى أنّ ثمة شاغلاً ملحّاً لديه "هو التوصيل والإبلاغ"، وإلى استثماره تقاليد "الحكائية العربية في السرد المباشر الذي يستعين على إلفة الصوت الواحد بالاسترسال الوجداني والدفق العاطفي والنبرة

الذاتية"، فـ"التفريد اللغوي الذي يهتم باللغة أكثر من عناصر البناء القصصي الأخرى"، وممّا أخذه عليه أنّه "ينقّي.. لغته ويوغل في الإنشاء".

وتأسيساً على ذلك، فإنّه يمكن القول إنّ ثمّة أذى كبيراً قد لحق بتجربة نحوي، القصصية والروائية، على مستوى الخطاب النقدي في سورية، ومسوّغ هذا الأذى، كما أرى، يترجّح بين عاملين رئيسيين: يتعلّق الأول بطبيعة الوعي النقدي الذي ظلّ سائداً في الحركة الثقافية السورية لنحو عقدين من الزمن تقريباً، ما بين مطلع السبعينيات ونهاية الثمانينيات، أي الوعي المحكوم بالتصنيف الأيديولوجي الغاشم الذي كان يحاكم انتماءات الكتّاب الحزبية، والذي كان يدفع إلى تجاوز إبداعات الكتّاب الذين لا ينتمون إلى الأيديولوجية التي يصدر عنها الناقد، وإلى إهمال تجارب هؤلاء الكتّاب عن سابق إصرار وترصّد، ثمّ إلى تقديم من ينتمي إلى الأيديولوجية نفسها، أو من يبارك أطروحتها. ويتعلّق الثاني بالموقع الوزاري الذي شغله نحوي، والذي دفع معظم المشتغلين بالنقد في سورية، دونما تعليل، إلى تجنّب الحديث عن تجربته الإبداعية.

وعلى النقيض من هذا التجاوز والإهمال، لقيت هذه التجربة، الروائي منها خاصة، حفاوة واضحة لدى عددٍ غير قليل من النقّاد العرب، كما لدى صالح أبو أصبع في كتابه: "فلسطين في الرواية العربية"(1975)، وشكري عزيز ماضي في: "انعكاس هزيمة حزيران على الرواية العربية"(1978)، ود. إبراهيم حسين الفيومي في: "الواقعية في الرواية الحديثة في بلاد الشام 1939-1967"(1983)، ود. إبراهيم السعافين في كتابه: "تطوّر الرواية العربية الحديثة في بلاد الشام 1870-1967"(1980)، وسيّد حامد النساج في: "بانوراما الرواية العربية الحديثة"(1982)، الذي رأى في نحوي كاتباً "يعيش واقع أمّته، وينعكس في قلمه نبضُ قلبها الدافق، وأنّه يحرص على أن يكون فيه في المقدّمة دائماً، لا يدع حركة الزمن والأحداث تسبقه، ولا يتخلّف فتتجاوزه خطا الجماهير التي يعتبر نفسه واحداً منها،ومعبّراً عنها، وقائداً لها بفنّه التقدّمي الرائد"[8].

ومن اللافت للنظر أنّ مجمل أولئك النقّاد عني بالحديث عن مضامين أعمال نحوي

الروائية، وقلّما توقف أحدهم عند أبنيتها الجمالية وطرائق صوغ الروائي لموادّها الحكائية الخام. ومن اللافت للنظر أيضاً أنّ معظمهم توجّه إلى رواية بعينها من نتاجه، أي: "عرس فلسطيني"، التي يمكن عدّها قاسماً مشتركاً بين الدراسات النقدية العربية، غير السورية، كافة، والتي تبدو، في معظم هذه الدراسات أيضاً، نموذجاً روائياً عربياً مميّزاً للرؤية الثورية التي ترسم طريق عودة فلسطينيي الشتات إلى أرض وطنهم التي اقتلعوا منها. كما في تقديم صالح أبو أصبع لهذه الرواية التي وصفها بقوله: إنّها "تدور حول السبيل إلى تحرير الأرض، الذي يشقّه فهدٌ الفدائي، وتكون بداية الطريق هي التضحية"[9]، وكما في وصف شكري عزيز ماضي لها بأنّها حاولت "أن ترسم طريق الخلاص من الهزيمة من خلال تجاوز الواقع برمّته مسترشدة بالرؤية.. الثورية"[10]، وفي وصف حامد النساج الذي رأى أنّها "أوّل رواية تصدر بعد هزيمة يونيو 1967، فتدين الماضي كلّه، وتجسّد طريق الخلاص لأزمة الإنسان العربي الفلسطيني"[11].

وعلى الرغم من أنّ مرجعيّات تلك الحفاوة التي أبداها أولئك النقّاد بهذه الرواية تكمن في موضوع الرواية أوّلاً، وفي صلة هذا الموضوع بمصادر دراساتهم ثانياً، فإنّها تكمن في طبيعة الأداء اللغوي الذي ميّز مجمل نتاج نحوي القصصي والروائي، والذي دفع "أبو أصبع" إلى القول إنّ لغة "عرس فلسطيني" ترقّ كثيراً[12]، كما دفع ماضي إلى القول إنّ نحوي كان بارعاً في صياغة روايته على المستوى اللغوي[13]، وإنّ الرواية نفسها "تزاوج.. بين الشعر والأسطورة تزاوجاً حاراً وعميق الدلالة"[14]، كما دفع رياض عصمت إلى القول، قبلهما، إنّ اللغة في هذه الرواية "موحية، وذات إيقاع يرتفع بها إلى مصافّ الموسيقى"[15].

وقد تنبّه معظم أولئك النّقاد إلى تلك المسحة الواقعية، لا سيّما الشعبي منها، التي لوّنت مجمل روايات نحوي، وإلى تلك القيم الجمالية التي أضفتها هذه المسحة على بنية الشكل الفنّي لهذه الروايات، فقد رأى أبو أصبع أنّ "اعتماد الكاتب أسلوب القصّ الشعبي، (في رواية عرس فلسطيني)، أعطاها قدرة هائلة على احتواء ذلك المضمون الفريد الذي

تتشكّل منه لحمة الرواية"[16]، كما عدّ ماضي تقديم نحوي، في الرواية نفسها، صوراً "من الحياة العامة وتوظيف الأغاني الشعبية وترصيع السرد والحوار باللهجة العامية دلالةً على اقتراب الرواية من الجماهير"[17].

ومع أنّ دراسة د. إبراهيم الفيومي تبدو أكثر تلك الدراسات استيفاء لمفهوم النقد وإجراءاته، ومع أنّ معظم مآخذ منتجها على رواية نحوي: "متى يعود المطر" يبدو صائباً، من مثل لجوء الكاتب إلى الدعائية المباشرة لقوانين الإصلاح الزراعي، وتحويله شخصية "إبراهيم العمر" إلى بوق يردّد آراءه[18]، فإنّها، في الوقت نفسه، تبدو أكثر تلك الدراسات استثماراً للنقد بمعناه التقليدي، أي النقد الذي يفترض في النصّ الإبداعي أن يكون مطابقاً للواقع الذي يصدر عنه، الأمر الذي كان يدفع الناقد، في مواضع مختلفة من كتابه، إلى القول إنّه كان على الروائي أن يفعل هذا، وأن يتجنّب ذاك[19]، محاولاً بذلك ليّ عنق النصّ ليكون نسخة مصوّرة عن الواقع، وليس فنّاً. كما كان يدفعه، في مواضع مختلفة أيضاً، إلى إعادة قول ما كان قاله في مواقع سابقة، بمعنى إسرافه في تلك المحاولة التي جعلت دراسته أشبه ما تكون، أحياناً، بمرافعة قضائية لا يدّخر صاحبها جهداً في تأكيد التهم المنسوبة إلى الخصم.

هوامش وإحالات

(1)- عصمت، رياض. "الصوت والصدى، دراسة في القصة السورية الحديثة". ط1. دار الطليعة، بيروت 1979. ص (240).
(2)- المصدر السابق، الصفحة نفسها.
(3)- المصدر السابق، الصفحة نفسها.
(4)- المصدر السابق، الصفحة نفسها.
(5)- المصدر السابق. ص (241).
(6)- الدقاق، د. عمر. "فنون الأدب المعاصر في سورية". ط1. دار الشرق، بيروت 1971. ص (71).
(7)- المصدر السابق، الصفحة نفسها.
(8)- النساج، سيد حامد. "بانوراما الرواية العربية الحديثة". ط1. دار غريب، القاهرة 1985. ص (220).
(9)- أبو أصبع، صالح. "فلسطين في الرواية العربية". ط1. مركز الأبحاث في م، ت، ف. بيروت 1975. ص (52).
(10)- ماضي، شكري عزيز. "انعكاس هزيمة حزيران على الرواية العربية". ط1. المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت 1978. ص (129).
(11)- النساج، سيد حامد. "بانوراما الرواية العربية الحديثة". ص (220).
(12)- انظر: أبو أصبع، صالح. "فلسطين في الرواية العربية". ص (56).
(13)- انظر: ماضي، شكري عزيز. "انعكاس هزيمة حزيران على الرواية العربية". ص (136).
(14)- المصدر السابق. ص (183).
(15)- عصمت، رياض. "الصوت والصدى، دراسة في القصة السورية الحديثة". ص (240).
(16)- أبو أصبع، صالح. "فلسطين في الرواية العربية". ص (57).
(17)- ماضي، شكري عزيز. "انعكاس هزيمة حزيران على الرواية العربية". ص (136).
(18)- انظر: الفيومي، د. إبراهيم حسين. "الواقعية في الرواية الحديثة في بلاد الشام 1939-1967". ط1. دار الفكر، عمّان 1983. ص (233).
(19)- انظر، على سبيل المثال، الصفحتين: (232)، (233) من المصدر السابق.

السيرة الذاتية للكاتب د. نضال الصالح

- مواليد: سورية. حلب 1957.
- دكتوراه في النقد الأدبي الحديث بتقدير "امتياز"
- عضو اتحاد الكتّاب العرب. جمعية النقد الأدبي.
- عضو هيئة تحرير مجلة "الموقف الأدبي".
- عضو جمعية العاديات. مستشار الشؤون الثقافية.
- عضو لجنة تأريخ القصة القصيرة والرواية في سورية.
- مدرّس الأدب والنقد في كلّية الآداب بجامعة حلب.
- نال عدداً من الجوائز الأدبية على المستويين المحلّي والعربي، في: القصّة، والرواية، والنقد الأدبي.
- حائز لعدّة شهادات تقدير من مؤسسات عربية مختلفة: الهيئة المصرية العامة للكتاب بالقاهرة، ومنتدى الفكر العربي بعمّان، ودائرة الثقافة والإعلام بالشارقة، ونادي الجسرة الثقافي بالدوحة، ومجلس مدينة حلب.
- شارك في عدد كبير من الندوات الثقافية، داخل سورية وخارجها، بالاشتراك مع عدد من الأدباء والمبدعين والنقاد العرب، وفي أكثر من برنامج ثقافي تلفزيوني.
- عضو لجان تحكيم في عدد من المسابقات الأدبية في سورية.
- كتب مقدّمات عدد من الأعمال الإبداعية العربية والأجنبية المترجمة.
- كتب عن إبداعه ونقده عدد كبير من الأدباء والنقّاد، منهم: أنيس منصور، ود. قاسم المقداد، ود. نعيم اليافي، ود. عبده عبود، ود. عبد الله أبو هيف، ود. رضوان القضماني، وشوقي بغدادي، وحيدر علي، ونذير جعفر، وجمال عبود، ورباب هلال، وعمر جمعة.
- أعدّ الكاتب والمخرج المصري عادل الحلفاوي نصوص مجموعته "مكابدات يقظان البوصيري" في سباعية درامية لإذاعة صوت العرب، وبُثّت السباعية مرّتين.

- صدرت له المؤلفات التالية:

1- "مكابدات يقظان البوصيري". قصص. ط1. الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1989.
2- "الأفعال الناقصة". قصص. اتحاد الكتّاب العرب، دمشق 1990.
3- "جمر الموتى". رواية. ط1. دار سعاد الصباح، الكويت 1992.
4- "طائر الجهات المخاتلة". قصص. مركز الإنماء الحضاري، حلب 1998.
5- "تحوّلات الرمل، الحكائي والجمالي في القصة القصيرة في قطر". نقد. دائرة الثقافة

والإعلام، الشارقة 1999.

6- "المغامرة الثانية، دراسات في الرواية العربية". نقد. اتحاد الكتّاب العرب، دمشق 2000.

7- "النزوع الأسطوري في الرواية العربية المعاصرة". نقد. اتحاد الكتّاب العرب، دمشق 2001.

8- "معراج النصّ، دراسات في السرد الروائي". نقد. دار البلد، دمشق 2003.

9- "أديب نحوي، الأعمال الكاملة". إعداد وتقديم. وزارة الثقافة، دمشق 2003.

وله تحت الطبع:

- "نشيد الزيتون، قضية الأرض في الرواية العربية الفلسطينية". نقد.

- "القصة السورية القصيرة في التسعينيات". نقد.

- "عالم وليد إخلاصي القصصي". نقد.

- "أصوات جديدة في الرواية السورية". نقد.